

ولادة بنت المستكفي في عيون الباحثين والمستشرقين

□ أ.د. علي دياب *

التعريف بولادة:

بداية لابد من التعريف بولادة من هي تلك الشخصية التي خلد اسمها؟ وطارت شهرتها فملأت الآفاق، وذكرها يتردد على كل لسان فيذكرها ابن بسام في ذخيرته وهو ينقل لنا بعض أخبارها فيقول: "إنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري، وكانت في نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد،

وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملجأ لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب"^(١)

❖ أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة دمشق.

^(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، ق ١، م ١: ٤٢٩.

كما يقول المؤلف نفسه ابن بسام في التعريف بأبيها فيقول نقلاً عن ابن حيان :

"بويح محمد بن عبد الرحمن الناصري ، يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمئة ، فسمى بالمستكفي بالله ، اسماً ذكر له فاختره لنفسه ، وحكم به سوء الاتفاق عليه ، لمشاكلته لعبد الله المستكفي العباسي ؛ أول من تسمى به - في أفنه ووهنه وتخلفه وضعفه... الخ ويتابع ابن حيان : لم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على أهل قرطبة محنة وبليه ، إذ كان منذ عرف غُفلاً عَطُلاً منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً عن كلّ خله تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة... وبالجملة في تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص ، إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركالة ، مشتهراً بالشرب والبطالة... وقدّ هذا المستكفي الأمر ولم يكن من أهله..."^(٢).

لقد توقفنا عند وصف ابن بسام للخليفة المستكفي والد ولادة ، إذ يشار دائماً إلى أنها أميرة من نسل الملوك ، ولكن المؤرخ يشير إلى أن المستكفي لم يكن شخصية تاريخية سوية كغيره من الأمراء والخلفاء الأندلسيين الذين يذكر التاريخ لهم ما فعلوه في تلك الديار ، وبالتعرف إلى حقيقة المستكفي نكتشف مفارقة تاريخية ، تستحق التوقف عندها ، بين الأب المستكفي والابنة ولادة ، فالمألوف أن يؤثر الأب في ابنه ويقال : فلان أو فلانة ابن أو ابنة فلان على مبدأ من شابه أباه ما ظلم ، فالأمر هنا معكوس ، فولادة طبقت شهرتها الآفاق ، وتطايير ذكرها ، حتى صارت مدار الحديث اقتراناً بكل من اقترب منها ، فابن زيدون لقب بصاحبها على الرغم مما تبوأه من مناصب ومن شهرته بذي الوزارتين ، وأبوها المستكفي لقب بوالد ولادة ، مع أنه خليفة ، وكذلك صاحبها مهجة القرطبية ، فكانت شاعرة ولا تقل جمالاً عنها إلا أن المؤرخين الذين ذكروها فقرونها بولادة وعرفت بأنها صاحبة ولادة ، وهذا ما يؤدي بنا إلى أن ولادة لم تكن شخصية عادية في زمانها ، وإنما كانت تشكل المركز فيما يتعلق بكل ما يحيط بها. هذا ولم يشر أي من المؤرخين الذين ذكروا ولادة إلى تاريخ ولادتها وإنما أشاروا إلى وفاتها ، وهنا يذكر المقرئ في نفحه نقلاً عن ابن بشكوال في صلته عن ولادة : "كانت أديبة شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء ، وعمرت عمراً طويلاً ، ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين ، وقيل أربع وثمانين وأربعمائة رحمها الله"^(٣).

(٢) المصدر نفسه : ٤٣٣ - ٤٣٤

(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، م : ٤٠٧ : ٢٠٧

البدايات الأولى لعلاقات ولادة:

ترعرعت ولادة في قصر والدها الخليفة الأموي الملقب بالمستكفي بالله حيث كان منزلاً كما أشرنا سابقاً في تيار الشهوات، منصرفاً إلى اللهو والمجون وخلع العذار، وليس له من سمات الملك سوى التربع على العرش، فلما توفي أبوها فتحت أبواب قصورها للأدباء والشعراء، ورجال الدولة، يتردد إليه الوجهاء والوزراء منتدئ للأدب والفنون، وذلك قبل أن تعرف أوروبا التي كانت غارقة في الجهل، الصالات الأدبية بمئات السنين، إذا كانت ولادة تدير جلسات ذلك المنتدئ بأسمى ما يتسم به الذوق من لطف بالمعشر، وسمو بالكياسة، مازجة التحرر بالتصاوغ في الإفصاح عما يعتل في فؤادها من هوى الرغبات. فما يخبرنا به ابن بسام بهذا الصدد: "على أنها سمح الله، وتعتمد زللها - اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلّة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها. كتبت - زعموا - على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

وكتب على الآخر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقله، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه^(٤). إذا توقفنا عند هذا الخبر الذي يورده ابن بسام عن ولادة فإننا نجد شيئاً من التناقض فهو يصفها بطهارة الثوب، وكرم النسب، ثم يعود ليصفها بقلّة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها، بما ينبئ بتقلب أخلاقي، مما دفعه لأن يطلب لها من الله السماح عما وقعت فيه.

وهنا نقف عند اللقاء الأول لولادة مع صديقها ابن زيدون كما يخبرنا عنه ابن بسام في ذخيرته فيقول:

"ولها مع أبي الوليد ابن زيدون أخبار طوال، يفوت إحصاؤها ويشق استقصاؤها.

قال أبو الوليد: كنت في أيام الشباب، وغمرة النّصاب، هائماً بغادة، تدعى ولادة، فلما قدرّ اللقاء، وساعد القضاء، كتبت إليّ:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسّر

وبي منك مالو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

(٤) الذخيرة، ابن بسام، ذكر سابقاً، ق ١، م ١: ٤٢٩ - ٤٣٠

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلت بقدّ كالقضيبي، وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج، وظلّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودرّ الطلّ منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شيبنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كلُّ منا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً أنشدتها ارتياحاً:

ودّع الصبر محب ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذا شيعك
يا أبا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك^(٥)

إننا نلاحظ هذا الوصف الرومانسي الذي أسبغه ابن زيدون على الطبيعة التي ضمته وحببته ولادة، فالروض المزين بالزهور، والأنهار تفيض بالمياه العذبة، وتقديمه لولادة لا يخلو من الجانب المادي، فوصفه لجسمها في رشاقتها مشبهاً إياه بالقضيبي، ولعجزها بالامتلاء المفضل وليس المنقر، كما لم يفته ذكر الجانب المتبقي بفعل تأثير الخمر، إذ كنّى عن تقييلها بـ"جني أقحوان الثغور" وعن جانب آخر كنّى عنه بـ"قطف رمان الصدور".

فإذا أمعنا النظر في هذا النص الذي نعهده خبراً مهماً يشير إلى اللقاء الأول بين ولادة وابن زيدون وربما هو اللقاء الأول لولادة، فشعر كليهما ولادة وابن زيدون، يظهر السلوك الذي يجمع بين أمرين في علاقتهما، الأمر العاطفي وما بينهما من حب حقيقي والأمر الثاني هو المادي أي ترجمة هذا الحب من إطاره النظري والعاطفي إلى حالة مادية من خلال قضائهما تلك الليلة كما يخبرنا عنها ابن زيدون، ونجد أيضاً أن هذا النص يطرح تساؤلات عدة حول شخصية ولادة، فهل هي ولادة نفسها التي كتبت على عاتقي ثوبها ما سبقت الإشارة إليه؟ أنا والله أصلح للمعالي. تقول: ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي...

فهي تكشف عن حقيقة مكنونها، إذ تختار ساعة متأخرة من الليل، فهو الوقت المناسب بالنسبة إليها. وليس في وضوح النهار أو مع غروب الشمس فعندما يلج الليل مخيماً "بظلامه الذي يحول دون تمييز الناس

(٥) الذخيرة، ابن بسام، ذكر سابقاً ق ١، م ١: ٤٣٠ - ٤٣١

للمارة، وفي ذلك الستر لهذه العلاقة، وربما تذكرت في لحظة إيمان عابرة القول الشريف: "وإذا بليتيم بالمعاصي فاستتروا" وهنا نتساءل حول هذا التناقض في شخصية ولادة، فربما كان هذا الشكل من المجاهرة في السلوك قد جاء في مرحلة متأخرة من حب الحبيين، ويمكن في الوقت نفسه أن يكون سابقاً لـ"لحبهما وهنا نقول: إن الأميرة الأندلسية قد كتبت على عاتقي ثوبها ما كتبت من باب التيه والكبرياء من الناحية النظرية بغية رمي شباك صيدها، ولكنها من الناحية العملية لا تريد أن تترك مآخذ حقيقية عليها وهي أنها كانت في منزل ابن زيدون وهي الأميرة بنت الخليفة... الخ.

وتعود في البيت الثاني مخاطبة ابن زيدون: وبني منك ما لو كان... لتعبر عما تحمله من وجد لابن زيدون ما يجعل البدر مختفياً، والليل لا يظلم، وبالنجم لا يتحرك. ومن ثم يعود ابن زيدون ليؤكد ما باحت به ولادة إذ يجمع في شعره بين ما هو روحاني وحسي، إذ لا يقوى على فراقها بعد أن ودّع مع وداعها الصبر، بعد أن فضحت الصبّ المحب عيونه، ولم يعد سراً ما استودعها بعد تأثير فعل الخمرة التي تفضح الأسرار، حتى إنه ليعض على أسنانه كمداً وغيظاً إذ إن خطاه لم تزد عدداً ومسافة وهو يرافقها مودّعاً ومن ثم يخلع عليها أوصافاً خيالية فهي أخت البدر حسناً ومكانة ويدعو الله بالخير للزمن الذي أطعها قمراً، ثم يعود لينهي ليله الطويل بعدها، الذي مر قصيراً جداً في أثناء لقائهما وهما يتبادلان الحب على طريقتيهما وفهمهما، في رفعة وتسام عن تلك الأشكال من الحب التي كانت في معظمها ممسوخة غير متكاملة ولم تكن أكثر من عملية لقاء بين طرفين بشريين تتم بطريقة بشرية بعيدة عما كانت تلك الليلة بين شاعرين المتحابين.

ولادة والغيرة:

إن الغيرة تبدو جليلة في قصة كل حب، وعبر مختلف المراحل، وفي كل العصور، وكانت القصة نفسها تتكرر ولكن في كل عصر وبما ينسجم وخصوصيته، وفي كل حب وما يتميز به عن غيره من أشكال الحب إن كان عذرياً أو ماجناً أو ما بينهما، إن الناس في كل ذلك ليس لهم من هم ضمن مجتمعاتهم إلا مراقبة بعضهم بعضاً، فإعراض الحبيبة يسر الوشاة ويفرحهم وتبادل الإعراض بين الحبيين أيضاً يزيد من فرحتهم ويدفعهم للمزيد من إلقاء بذور الفتنة والخلاف ما بينهما^(٦).

(٦) الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري (١١م)، د. ديلب، علي: ١٩١.

أردنا أن نقدم لمفهوم الغيرة بهذه الكلمات لنصل إلى شخصية ولادة وتميزها عن غيرها من حيث استحواذ الغيرة وفعل فعلها في علاقاتها كافة، ففي إحدى ليالي الأانس والطرب التي جمعتها مع حبيبها ابن زيدون، وانطلقت حنجرة جاريتها عتبة تهز أعطاف الليل بسحر إيقاعها وعذب إنشادها وعندما شاهدت عتبة تناغم ولادة وابن زيدون وانسجامهما في تلك الليلة فغنتهما وبذلك: "قال أبو الوليد" وكانت عتبة قد غنتنا:

أحبتنا أني بلغت مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي

وجاء يهنيني البشير بقربه فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

فسألها الإعادة، بغير أمر ولادة، فخبأ منها برق التبسّم، وبدا عارض التجهم وعاتب عتبة فقلت:

وما ضربت عتبي لذنّب أتت به ولكنّما ولادة تشتهي ضربي

فقامت تجرّ الذيل عائرة به وتمسح ظلّ الدمع بالعنم الرطب

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، فلمّا قامت خطباء الأطيّار، على منابر الأشجار، وأنفت من الاعتراف وباكرت إلى الانصراف، وشّت بمسك الأنفاس على كافور الأطراس:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير

وتركت غصنا" مثمرا" بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنني بدر السما لكن دهيت لشقوتي بالمشتري^(٧)

يشير الكثير من الباحثين إلى أن ابن زيدون قد وقع في حب عتبة جارية ولادة استناداً إلى النص السابق، إلا أننا نرى أن طلب شخصية كابن زيدون من هذه الجارية إعادة ماغنته ليس بالضرورة أن يكون قد أحبها وهي جارية سوداء والأهم من هذا وذاك أنها جارية حبيبته ولادة، وإنما طلب الإعادة كان من باب الإعجاب بهذه الشعرية التي أظهرتها هذه الجارية، إلا أن ما يدعونا للتوقف عنده هنا وهو موضوع حديثنا ردة فعل ولادة تجاه طلب ابن زيدون هذا، إذ عدّ ابن زيدون ضرب عتبة من قبل ولادة هو ضرب له وليس لها، وأجاد بدوره في وصف ولادة إذ قامت غاضبة، تعثر في ذيل ثوبها، ماسحة دمعها بأصابع يدها

(٧) الذخيرة، ابن بسام، ذكر سابقاً، م ١: ٤٣١ - ٤٣٢

-وهنا تكمن عبقرية ابن زيدون إذ لم يغفل عن وصف زينتها - وهو ضمن هذا الموقف الانفعالي ، فيقول : إن أظافرها الجميلة كانت مخضبةً بصبغ العنم وهو عصير العنم يستخرج منه رحيق تصبغ به النساء أظافرها ، ويبين لنا ابن زيدون من خلال النص السابق أن ما حصل بينه وبين ولادة نتيجة غيرتها ، وكيف كان العتاب هو اللغة السائدة بينهما ، وكيف انقطعت الصلة بينهما. وعندما جاء الصباح انصرفت وكتبت له عتاب مرّ وهو لو أنه كان رجلاً منصفاً يقدر الجمال والأصل والحسب والنسب لما أحبّ جارية سوداء لا تقاربها جمالاً وخصوبة مشبهة نفسها بالغصن المثمر رونقاً في مقابل جارية كالغصن الذي يفتقر إلى كل هذه الصفات ، وتشير ولادة إلى أن ابن زيدون يعلم تماماً أنها لفرط جمالها تشبه البدر الذي يفوق كل النجوم والكواكب إنارة بانعكاس ضوء الشمس عليه ؛ إلا أنه ولعيب في ذوقه أحب كوكباً معتماً كالمشترى شبهت به جارتها.

ولم تكن غيرة ولادة من ابن زيدون بسبب عتبه جارتها فحسب ، ولم تكن الغيرة مقتصرة على ولادة خاصة والنساء عامة وإنما للرجال نصيب منها ربما يفوق ما للنساء. فكما ذكرنا سابقاً أنه كان لولادة منتدى في قصرها يفده الجميع من وزراء وكتاب ومثقفين يخطبون ودّ صاحبته ولم يكن ابن زيدون وحده فارس هذا الميدان وإنما كان هناك الوجيه الخطير ابن القلاس ، الوزير الأول لأبي الحزم أبو عامر بن عبدوس ، وكانت صلات الثلاثة ببعضهم وثيقة ، إلا أن التنافس فيما بينهم على حب ولادة قد أفسد هذه الصلات وخرّبها ، ولم يستطع ابن القلاس الصمود في الميدان بعد أن طاله لسان ابن زيدون بقصيدة هجائية يقول فيها :

وأصغ لمقالتى ، واستمع	وخذ فيما ترى ، أودع
وكم ضرّ امرأً أمرٌ	توهم أنه ينفع
أعد نظراً فإن البغ	ي مالم يزل يضرع
ولا تطع التي تغويد	ك ، فهي لغيرهم أطوع
تقبل إن أتى خطب	وأنف الفحل لا يقرع
ولاتك منك تلك الدا	ر بالمرأى ولا المسمع ^(٨)

(٨) ديوان ابن زيدون ، شرح وتحقيق كرم البستاني ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

وبالمقابل بقي ابن عبدوس صامداً في الميدان يواجه ابن زيدون ولا يفر إلا ليكر، غير عابئ بكل ما وجهه له ابن زيدون من هجاء مرّ، شعراً ونثراً. فمن الهجاء الشعري :

أثرت هزبر الشرى، إذ ربض	ونبّهته، إذ هذا فاغتمض
حذار حذار، فإن الكريم	إذا سيم خسفاً، أبى، فامتعض
إذا الشمس قابلتها أرملاً	فحظّ جفونك في أن تغضّ
أعيذك من أن ترى منزعي	إذا وتري بالمنايا، انقبض
وغرك من عهد ولادة	سراب تراءى، وبرق ومض
هي الماء يعز على قابض	ويمنع زبدته من محض ^(٩)

ومن الهجاء النثري تأتي الرسالة الهزلية. في مقدمة هذا الهجاء الذي وجهه له على لسان ولادة، ومع ذلك لم ينهزم أمام خصمه في حب ولادة، وبتقديرنا أن الظرف السياسي في غير صالح ابن زيدون وبالنهاية كانت الغلبة لابن عبدوس، وكما يجمع الباحثون أن رسالة ابن زيدون لخصمه كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير عند ولادة. فإن ابن زيدون في هذا المقام يشبه نفسه بالليث الرابض للانقضاض على فريسته، حيث وضعه موضع المثير لغيطه، وهنا يهدده بألا يطمع في كرم صبره، لأنه إذا وقع عليه الظلم فإنه يأبى الضيم ويثور في وجه الظلم، ويظهر في نهاية قصيدته الطويلة التي تبلغ أربعين بيتاً أوصافاً تحرم ولادة عليه، فهي في وعودها له وعهدا معه، كالسراب الخادع يحسبه العطشان ماءً يلمع، وهي كالماء حين يقبض عليه، يظن أنه امتلكه، ينفلت من بين أصابعه، ولا يكون حظّه منها، إلا حظ من مخض الماء بعد عناء ليخرج منه زبدًا، فيمنعه الماء ما أراد، إذ ليس فيه زبد، وفي هذا التشبيه كناية عن طلب المستحيل. ومما يسجله ابن بسام لولادة في إطار ذكر علاقتها بابن عبدوس: "وأما ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها، فأية من آيات فاطرها: مرّت بالوزير أبي عامر بن عبدوس -المتقدم الذكر- وكان بقرطبة أحد أعيان المصّر، وبعض من هذى باسمها، وتصرف على حكمها، وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار، وقد نشر أبو عامر كمبيه، ونظر في عطفيه، وحشر أعوانه إليه، فقالت له: أبا عامر:

(٩) المصدر نفسه، ديوان ابن زيدون، ص ٩٠ - ٩٢.

أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلالكمما بحر
فتركته لا يحير حرفاً، ولا يـرد طـرفاً^(١٠)

إذا توقفنا عند هذا النص الذي يورده ابن بسام، يتبين لنا ذكاء ولادة وحضور بديعتها، فوزير كابن عبدوس، يفعل كالعوام مشمراً كميته وأعوانه من حوله من أجل إصلاح بركة قدرة، فما استطاعت إلا أن تسخر منه، جاعلة من بركته الآجنة ومنه مجراً يتدفق بالأقذار. والملفت للانتباه في علاقة ولادة بابن عبدوس أنه وعلى الرغم من سخرها منه، فبقي على مواصلته ولا يغفل مراسلتها ويقول ابن بسام بهذا الشأن:

"كان يحمل كلّها، ويرفع ظلّها، على جذب واديه، وجمود روائحه وغواديه أثراً جميلاً أبقاه، وطلقاً من الظرف جرى إليه حتى استوفاه"^(١١).

وهكذا استمر ابن عبدوس، لا يتوانى عن طلب وصالها، حتى حين أزرى بها الزمان، فكان يحمل كلّها ويرفع ظلّها، على الرغم من أحواله غير المريحة، إلا أنه بفعل ذلك يترك للتاريخ عملاً حسناً وظريفاً.

ومما يسجله المؤرخون عن غيره ولادة، هجاؤها لابن زيدون، وذلك بعد طلبه من جاريتها عتبة إعادة البيتين اللذين غتتهما ذات ليلة فتقول فيه:

"ولقبت المسدس وهو نعت تفارقك الحياة ولا يفارق
فلوطي ومأبوت وزان وديوث وقرنان وسارق
وقالت فيه أيضاً:

"إن ابن زيدون على فضله يعشق قضبان السراويل
لو أبصر... على نخلة صار من الطير الأبابل"^(١٢)

ومن خلال ما سبق تظهر شخصية ولادة على حقيقتها وكيف كانت ردة فعلها على ابن زيدون الذي اقترن اسمها باسمه والعكس أيضاً صحيح، وهذا يشير إلى غيرتها الشديدة، إذ لم تستطع أن تغفر لابن زيدون هذه الهفوة والتي كما أشرنا سابقاً ربما كانت من قبيل الإعجاب بثقافة الجارية السوداء وليس كما

(١٠) ذكر سابقاً - الذخيرة، ابن بسام ق ١، م ١، ص ٤٣٢.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر ذكر سابقاً - نفح الطيب - المقرئ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

تهياً لولادة، ومع ذلك لم تنح هذا المنحى في تفسير الواقعة، وإنما شكّت به وعاتبته بثلاثة أبيات سبق وأن ذكرناها ومن ثم قست عليه هذه القسوة التي تمثلت في الأبيات آنفة الذكر، إذ كان هجاءً مقذعاً، استخدمت فيه عبارات قاسية، تجاوزنا تثبيت واحدة منها وذلك لفحشها، مع أن المقرئ أثبتّها في نفعه، وهذا يكشف نفسية ولادة التي كانت معجبة بنفسها ولا تجد من يشبهها أو يقترب منها على وجه هذه البسيطة، ومع ذلك تجد شخصية مثل ابن زيدون قال فيها ما لم يقله مالك في الخمر، يتغزل بجاريتها، وهذا ما أفقدها صوابها، وبالتالي كانت تلك الأبيات التي وجهتها إليه، معنفة إياه ومستخدمة أبشع العبارات بل وأكثرها سوقية، ولمن هذا الهجاء، هو لمن قال فيها من الشعر ما خلب عقول المتأدين لمئات السنين، وعادى بسببها الأقوياء في عصره. وعلى الرغم مما مر فيه من حالات مختلفة سواء أكان سجيناً أو هارباً متخفياً، لم يقل فيها إلا أعذب الشعر. كل ذلك لا يغفر لولادة هذا الانحدار وهي في مقام الغيرة والاحتجاج على صديقها، وكأننا نجد أنفسنا أمام شخصية أخرى عندما نرى ولادة تعرب عن مشاعرها تجاه ابن زيدون وحبها إياه في غزل رقيق يجمع بين الصباغة والشكوى، معطية نفسها الحرية في التغزل بالرجل تغزل الرجل بالمرأة فتخاطبه بعد غيابها عنها:

سبيل فيشكو كلّ صبّ بما لقي	"ألا هل لنا من بعد هذا التفرّق
أبيت على جمرٍ من الشوق محرقٍ	وقد كنت أوقات التزاور في الشّتاء
ولا الصبر من رقّ التشوق معتقي	تمر الليالي لا أرى البين ينقضي
سكوب هاطل الويل مغدق ^(١٣)	سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

وهكذا نجد في أبيات ولادة دفء العاطفة دون تكلف، فهي تفصح عن هذه العواطف دون تصنع، وتبدو المعاني طوع يديها، تصوغها ببساطة وتبدو في غزلها هذا متماسكة بعيدة عن التطرف في الغزل كغيرها من شاعرات الأندلس. وبالمقابل نجد ابن زيدون وبعد قراءته هذه الأبيات يجيبها بيتين من البحر نفسه والقافية إياها فيقول:

حياك من أجل النوى والتفرق	لحى الله يوماً لست فيه بملتق
وأيّ سرور للكئيب المورق ^(١٤)	وكيف يطيب العيش دون مسرة

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(١٤) المصدر نفسه.

وهنا يبدو ابن زيدون وهو يرد على مقطوعة ولادة بيتين من الشعر، فيه الكثير من المعاني، ففيه شيء من الغنج والدلال، وهو في هذا المقام يبدو خلاف الواقع عامة إذ يكون الغنج عادة من المرأة وليس من الرجل، وخاصة لدى ابن زيدون وما له من أشعار رائعة في التودد إلى ولادة والإلحاح في العودة إلى اللقاء، وهجر ما يقوم به الحساد والكارهون، وربما كانت نونيته خير شاهد على ذلك، فكانت عبرة لكل محب، وسلوى لكل صبٍّ، ومثلاً لكل شاعر، إلا أنه هنا يبدو أستاذاً لأنها كثيراً ما كانت تطلب إليه أن يشير إلى ما في شعرها من هنات، فهو يبعث مع بيتيه نقداً لما جاء في بيت ولادة الأخير: سقى الله أرضاً ويرى أن وبلاً مغدقاً قد يغرق منزله، ونلمس أيضاً لدى ابن زيدون الشعور بالتعالي والتفوق، فهو شاعر الأندلس بلا منازع، بالإضافة إلى شعوره أنه أصبح الآن مالكاً لزمان قلبها، بعد قوله عشرات القصائد ومئات الأبيات في التودد إليها وطلب اللقاء بها.

ولادة والآراء المتباينة في شخصيتها:

قيل الكثير في ولادة منذ سماع أخبارها إلى وقتنا هذا، ويمكننا القول: إن هذه الشخصية الفريدة المختلف حولها بل والمختلف عليها تحتاج إلى المزيد من الدرس والتقصي والتحقيق حول الآراء التي قيلت فيها.

أوردت بعض المصادر أن ولادة شخصية تاريخية، وهذا ما نقله الوزير أبو عبد الله جعفر بن مكي بن أبي طالب القيسي عن ولادة لتلميذه أبي القاسم بن بشكوال وكلا الرجلين ثقة عدل^(١٥)، فقد ذكر الوزير أن ولادة جاءت إليه لتعزيه في أبيه الذي توفي يوم الثلاثاء لخمس خلون من المحرم سنة ٤٧٤ هـ وكان الوزير حينئذ في الرابعة والعشرين من العمر، أما ولادة فقد تجاوزت السبعين ولهذا كان الوزير دقيقاً في حديثه عنها^(١٦)، إذ لم يذكر شيئاً عن جمالها، وإنما توقف عند صفات أخرى تمثلت في النباهة والفصاحة وجزالة المنطق وحرارة البادرة أي سرعة الخاطر والحدة في روح الفكاهة وأخيراً فقدان التطابق بين شرف الانتماء وما يفترضه ذلك من تصاون، وهذا الرأي الأخير في أنه "لم يكن لها تصاون يطابق شرفها" فهو ليس أكثر من حكم أخلاقي يعود إلى التقويم العام المتباين لشخصية ولادة والذي تم تناقله بين الناس، فهذا المصدر هو

(١٥) دراسات في الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، د. داود القاضي، د. ألبير مطلق، ص ١٩٢.

(١٦) المرجع نفسه.

الوحيد الذي نظر إلى ولادة وعدّها شخصية تاريخية، بينما لم نلاحظ ذلك في بقية المصادر والآثار التي تحدثت عن ولادة، وإن أقرب مصدرين إلى عصر ولادة بعد جذوة المقتبس للحميدي هما: كتاب الذخيرة لابن بسام الذي بدأ بتأليفه وهو بقرطبة سنة ٤٩٣هـ أي بعد وفاة ولادة بما يقرب من عشر سنين، وكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان. فابن بسام لم يستطع أن ينقل أي خبر عن ولادة وأكثر من ذكر -زعموا - في معظم ما أورده فيقول:

"وكانت -زعموا - تقرض أبياتاً من الشعر، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعليقات، أضربت عن ذكره، وطوبته بأسره، لأن أكثره هجاء، وليس له عندي إعادة ولا إبداء، ولا من كتابي في أرض ولا سماء" (١٧).

أما ابن خاقان فيعتقد أن ولادة هي بنت المهدي ويقرن بها بعض قصائد ابن زيدون (١٨)، ويضرب مثلاً على ذلك من قصيدته:

إني ذكرتكَ بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وقصيدته أيضاً:

يا نازحاً وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبداً أنت دنياه

كما يقول ابن خاقان: إن غزل ابن زيدون الذي صدر به إحدى قصائده في الاعتذار لأبي الحزم بن جهور إنما خاطب به ولادة مقيماً لها البراهين على أرقه وسهره (١٩)، ويضرب مثلاً على ذلك في قصيدته التي تبدأ:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتكَ ذكر العين بالأثر (٢٠)

وهكذا نلاحظ تخبّطاً لدى ابن خاقان يحوِّك قصصاً مسجوعة حول بعض قصائد ابن زيدون دون أن يهتم بعامل الزمن ودون أن يحقق إن كان ما يقوله ذا صلة بالواقع أو منقطع الصلة به، ومن أجل هذا الغموض الذي يعتري الحقيقة التاريخية المتصلة بولادة في أقدم ثلاثة مصادر وهي ديوان ابن زيدون والذخيرة والقلائد،

(١٧) الذخيرة لابن بسام، ذكر سابقاً، جزء ١، مجلد ١، ص ٤٣٢.

(١٨) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، ص ٧٣.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٢٠) ديوان ابن زيدون، كرم بستان، ذكر سابقاً، ص ١٤٧.

تبقى الشهادة التي نقلها ابن بشكوال عن شيخه ابن مكي هي أقوى ما لدينا ، تلك الشهادة التي جاءت بعد حوالي عشرين سنة من كتابة قلائد العقيان تعد خاتمة لكل ما نعرفه عن ولادة على وجه التقريب^(٢١).

ولو عدنا إلى ابن بسام لرأيناه يذكر خبر اللقاء الأول لابن زيدون مع ولادة نقلاً عنه أي عن ابن زيدون وبعد أن يقدم نصه الشري الرائع لوصف ذلك اللقاء يقول : فلما انفصلت عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً^(٢٢) :

ودّع الصبر محب ودّع

بينما نجد المقرّي في نفح الطيب يذكر فيما يخص ذلك اللقاء التالي :

ولما أرادت الانصراف ودّعته بهذه الأبيات^(٢٣) :

ودّع الصبر محب ودّعك

هذا التباين يصاحب الكثير من القصائد فمنهم من ينسبها لابن زيدون ومنهم من ينسبها لولادة. ومنهم أيضاً من قال : إن ابن زيدون لم يذكر ولادة في شعره صراحة إلا في بيتين من الشعر وهما :

وغيرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض^(٢٤)

والثاني :

أكرم بولادة ذخراً لمدّخر لو فرقت بين بيطار وعطار^(٢٥)

ومما كان يؤخذ على ولادة علاقتها غير الطبيعية بمهجة القرطبية ، حيث يقول ابن سعيد في مغربه :

"إن أباه كان يبيع التين ، وكانت هي تدخل عند ولادة بنت المستكفي الشاعرة ، وكانت من أجمل نساء زمانها ، وأخفهن روحاً ، فعلفت بها ولادة ، ولزمت تأديبها ، إلى ان صارت شاعرة"^(٢٦). ويقول علي

(٢١) دراسات في الأدب الأندلسي ، ذكر سابقاً ، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢٢) الذخيرة لابن بسام ، ذكر سابقاً ، ص ١٩٩.

(٢٣) نفح الطيب للمقرّي ، ذكر سابقاً ، ص ٢٠٦.

(٢٤) ديوان ابن زيدون ، كرم بستانني ، ذكر سابقاً ، ص ٩٢.

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨.

(٢٦) المغرب في حلي المعزب ، ابن سعيد ، جزء ١ ، ص ١٤٣.

عبد العظيم في تحقيقه لديوان ابن زيدون: ^(٢٧)

"كانت مهجة مكشوفة الوجه، وقاح اللسان، مما حمل الكثير من المستشرقين على إساءة الظن بهذه العلاقة المريبة، ويحدثنا المستشرق نيكل أن نزواتها لا تكاد تختلف عن النزعات التحررية بين النساء الجامعيات ونجوم المسرح والخيالة في العصر الحديث، ويشبهها بجورج صاند في مغامراتها العاطفية. إلا أننا نجد ما ينفي هذه العلاقة المريبة بمهجة، هو هجاء مهجة لها وعدم اتهامها بالجنسية المثلية وإنما بالجنسية المغايرة، وذلك من خلال هجائها لها: "فزعمت أنها ولدت وليس لها بعل، فقالت ما نقص عنه ابن الرومي:

ولادة قد صرت ولادةً	من دون بعل، فضح الكاتم!
حكّت لنا مريم لكنّه	نخلّة هذي... قائم
قال: وما تقدمت به فحول الذكران قولها:	
لئن ملأت عن ثغرها كل حائم	فما زال يحمي عن مطالبه الثغر
فذلك تحميه القواضب والقنا	وهذا حماه من لواظها السحر ^(٢٨)

بالفعل إننا نوافق ما ذهب إليه البعض في وصف مهجة وهي أنها كانت من الخلاعة في القول والفحش في الشعر ما جعلها تنال من عفة قائلتها وخاصة ولعها بذكر عورات الرجال في شعرها، وربما تتناغم مع ولادة في هذا الشأن إذا تذكّرنا هجاءها لابن زيدون، وهكذا نلاحظ أن مهجة لم تتورع عن هجاء ولادة كما سبق مستغلة طبيعة اسمها الذي يعني المرأة الكثيرة الإنجاب ولابن الرومي معنى مماثل، وقيل: إنه أي ابن الرومي لو سمع هذا الهجاء الصادر عن مهجة لأقرّ لها بالتقدم. وهنا نتوقف بدهشة عند هذا النوع من الهجاء، فالشاعر أحياناً يجد نفسه وعلى الرغم من عففته قد غلب عليه الإفحاش أثناء هجائه، ولكن إن بررنا ذلك للرجل، فلا يمكننا أن نبرر ذلك للمرأة لأنها بطبيعتها أكثر حياء من الرجل. كما يؤخذ على ولادة موقفها الغامض من ابن زيدون أو من غيره من المحبين، وكيف أنها تعيش عانساً طوال حياتها على الرغم من السمات التي تميزها عن غيرها. هذا ويرد علي عبد العظيم في مؤلفه على المستشرقين في اتهامهم لولادة

^(٢٧) ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، ص ٣١.

^(٢٨) المغرب في حلي المغرب لابن سعيد، ذكر سابقاً، ص ١٤٣.

بالمثلية الجنسية، إذ يرى أن صلاتها بابن زيدون، تقطع بأنوثتها الطبيعية^(٢٩)، ولكن علي عبد العظيم يدافع عن الاتهام الموجه لولادة المثلية الجنسية، إلا أنه يقول عنها: إنها كانت مصابة بالسادية sadisme وهي حب إيقاع التعذيب على الجنس الآخر، حيث تغرس بذور هذا المرض في المرأة منذ الطفولة حيث تشعر أنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء، فتشعر بحسد وغيرة، يسمى حسد الذكورة، ويتحول هذا الحسد إلى مرض خطير بعد البلوغ وربما يكون هذا المرض عند ولادة وراثياً لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمير إذ إن أباهما كان من المدمنين على شرب الخمر، وإن من مظاهر السادية أن تنصب المرأة شراكها للرجل حتى يقع فريسة هواها، فتذيقه أنواع الصدود وتجلب عليه صنوف الشقاء وضروب الحرمان. ويورد هنا علي عبد العظيم مثلاً: "لقد اعترفت إحدى السيدات للعالم النفسي اشتكل Stekl فقالت: إن اللذة الجنسية ضعيفة إذا قيسست باللذة التي استشعرها من العمل السادي، فهي لذة لا يجدها الوصف، ولا تصورها الألفاظ، فإنني أشعر بشخصي يسمو ويعلو، ويملؤني الزهو والكبرياء والجلال وتبلغ بي النشوة أوجها، كلما شعرت أنني بسطت سيطرتي على هؤلاء الرجال دون أن أشبع لهم رغبة، أو أطفئ لهم شهوة فهم عبيدي، يظلون يحرون خلفي طمعاً في أن يتذوقوا حلاوة وصالي بعد أن ذاقوا مرارة قسوتي وكبريائي، فهم أتباع لي دائماً، يحذوهم الأمل في نعيمي فلا يدخلون إلا جحيمي"^(٣٠). فاعتراف هذه السيدة أمام عالم النفس نجد بعضاً من ملامحه في قول ابن زيدون:

قد نالني منك ما حسبي به وكفى	يا من تناهيت في إلفافه، فجفا
عللّنتني بالمنى، حتى إذا علقت	بالنفس لم أعط من أسبابها طرفا
غيرتَ عن خلق، قد لان لي زمناً	لين النسيم، فلما لذّ لي عصفا
لا يحبطن عمل، أرضاك صالحه	ففي سبيلك أنفقت الهوى شرفاً ^(٣١)

أما المستشرق الفرنسي هنري بيريس فقد أخذ عليه وبلاستناد إلى آرائه التي أوردها في كتابه: "الشعر الأندلسي في عصر الطوائف وملاحمه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمتها الوثائقية" أن خلفيته الثقافية وهيمنة

^(٢٩) ديوان ابن زيدون، علي عبد العظيم، ذكر سابقاً، ص ٣٨.

^(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٩.

^(٣١) ديوان ابن زيدون، كرم البستاني، ص ٧٠.

مفهومه المسيحي عن الإسلام، كان مؤثراً في نظره إلى شخصية ولادة بنت المستكفي، فنحن لا ننكر عليه موضوعيته فيما يقوله بتحرر ولادة، إلا أنه يبالغ عندما يعقد مقارنة بين إسلام متشدد الرؤية حول وضع المرأة، والمسيحية التي ساعدته في تغيير مفاهيمه، ولكننا لا يمكن أن نغفل دور البيئة الجديدة والتفاعل الحاصل بين الثقافات على هذه الأرض الجديدة، وعملية التأثير والتأثير التي حصلت في مختلف جوانب الحياة في المجتمع الأندلسي الجديد، كما نلاحظ جانباً آخر ألا وهو تبسيطه لموضوع الحرية عند المرأة في الأندلس إذ يعزیه إلى أنه كان نتيجة الصعوبات التي كانت تواجهها المرأة المسلمة في زواجها، بسبب الوفرة التي كانت متأتية من الأسيرات والعشيقات المسيحيات اللاتي سلكن طريقهن إلى الحريم. بينما نجد رأياً آخر ينكر تأثير المسيحية في وضع المرأة الأندلسية المسلمة وهذا الرأي للمستشرق آدم ميتز حيث يذكر أنه بتأثير الإسبان كانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وكيف يستقيم الرأي لدى بيرس إذا كنا نتحدث عن ولادة التي عاشت قبل هذا التاريخ بستة قرون، أي في القرن الحادي عشر الميلادي.

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نسجل لولادة أنها كانت أول من سنّ للنساء سنة السفور والخروج على الحشمة والوقار، وأنها كانت سبابة في إدارتها لصالونها ليس في تاريخ أدبنا العربي فحسب، وإنما سبقت في ذلك الأوربيات بقرون عدة، فالدور نفسه الذي قامت به في الأدب الفرنسي السيدة دي ديفاند Madame de Devande في القرن الثامن عشر حيث كانت مثل ولادة ميالة للهو والعبث، وأحبها نبغاء الفكر حينذاك أمثال: فولتير ومونتسكيو، وكذلك الشيء نفسه بالنسبة للسيدة وازيل دي لسيناس Madame Wazil de Lespinace. وما يلفت نظرنا هنا أن السيدتين هما من عائلات فرنسية نبيلة وبورجوازية كما كان حال ولادة.

لقد تعددت الآراء في شخصية ولادة فمنهم من اتهمها بالفحش وبالجنسية المثلية كما أشرنا ومنهم من وصفها بالطهارة، وبتقديرنا أن الظرف السياسي الذي عاشته ولادة وما ذاقته من فواجع وأرزاء هو الذي كمن خلف اتخاذها هذا المنحى في حياتها وذلك كي تنفّس عن كربها، وتجذ ما ينيها عما حلّ بأسرتها وبحكم بني أمية في الأندلس، ويمكننا القول هنا: إنها رفضت الزواج وبقيت عزباء إلى أن توفيت وقضت حياتها خاصة مع ابن زيدون بين مد وجزر، بين حب وانقطاع... وهكذا إلى أن كان الفراق النهائي، حيث بدأت علاقتها بابن عبدوس، وربما ليس لحب حقيقي بينهما أكثر مما هو نكاية بابن زيدون، ولا سيما بعد

توجيه رسالته الهزلية لابن عبدوس باسمها ، حيث كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير ، والتي وضعت حداً لعلاقتها به وعدم العودة إليه. وبتقديرنا أن شهرة ولادة وتفوقها على من سبقها ومن لحقها من شاعرات يعود لسببين اثنين : الأول أنها من بيت الخلافة وابنة خليفة وصاحبة صالون أمه الشعراء والأدباء ورجال الدولة ، فاستطاعت بسحر جمالها أن تفتن جمهرة الشعراء ورجال الدولة ، فوقع الحسد والتنافس فيما بينهم بغية الفوز بحبها والثاني هو ما قاله ابن زيدون فيها وهيامه بحبها ، وكلفه بوصولها ، وشقاؤه بفراقها ، وغيرته عليها ، فكل ذلك فجر لديه طاقة الشعر الكبرى الذي أنتج ذلك المخزون الغزلي الثر المتميز عما قيل من غيره وفي غير ولادة بنت المستكفي.

مصادر البحث ومراجعته

١. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨ .
٢. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ابن بسام، تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت ١٩٨٧ - ١٩٧٩ .
٣. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الحميدي، تحقيق محمد بن طاووت الطنجي - مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٧١ .
٤. دراسات في الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، د. وداد القاضي، د. ألبير مطلق الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس ١٩٧٨ .
٥. ديوان ابن زيدون، تحقيق كرم بستانى، دار صادر، بيروت ١٩٧٥ .
٦. ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، القاهرة ١٩٥٧ .
٧. الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري (١١م) ابن زيدون والمعتمد بن عباد نموذجاً د.علي دياب مطبعة الجمهورية، دمشق ١٩٩١ .
٨. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤ .
٩. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، بولاق ١٨٦٧ .
١٠. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .